## الفصل الثانى

# أخبار ابن الرومى

## العصر والرجل

فى تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهروا فيها من النوابغ والعبقريين فى الشعر والأدب والفن والصناعة، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى العصر وحده أن أحوال العصر هى التى عليها المعول فى تكوين المواهب والعبقريات.

وفى تاريخ كل أمة أيضًا نوابغ وعبقريون ظهروا فى مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يغنى شيئًا فى تكوين المواهب والعبقريات، أو أنه - إذا لم تسعف الموهبة والعبقرية - قليل الغناء.

ونحن يجب أن نحذر كل فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى، فهى تفقد استقلالها كله أو بعضه كما يفقد استقلاله كل من يخدم سواه. إنما تحترم الفكرة إذا أريدت لنفسها ولم ترد لتأييد فكرة هى مضافة إليها.

فيغلب على الذين يحصرون الفضل فى العصر وحده أنهم يدعون إلى الاجتماعية والاشتراك فى مرافق الأمة، فقللون من شأن الأفراد فى الوصول إلى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤاتاة الحوادث.

ويغلب على الذين يحصرون الفضل فى الفرد وحده أنهم ينازعون أصحاب ذلك الرأى وينظرون إلى تفنيده وتوهينه لإبطال ما يدعو إليه.

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون. ولا يرجى الإخلاص وصدق التحرى فى فكرة مسخرة تساق فى ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها. فلا العصر هو كل شىء ولا الموهبة الفردية هى كل شىء، والأمر الذى لا مراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هى لم توجد فى

صاحبها، وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لإظهار المذاهب والعبقريات.

ثم إن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقًا فهو لا ريب يوجهها ويهيئ لها أسباب تمامها واستوائها، بحيث يسهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدى على وجهتها فى زمن ولا تهتدى إليها فى زمن آخر، وكيف أن رجلا يكون صانعًا فى هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد فى غيره لكان من الأدباء أو السواس.

ولا فائدة هنا من البحث فى مصر ابن الرومى ماذا كان يلقى وماذا كان يصبح لو أنه ولد فى غير القرن الثالث للهجرة. فقد ينبغ أو لا ينبغ، إلا أن المحقق عندنا أنه فى أى عصر ظهر لا يكون إلا شاعراً أو صاحب عمل فنى بسبيل من الشاعرية. فقد نتخيل أبا تمام - مثلا - قاضيًا والبحترى عاملا والمتنبى وزيراً والمعرى فقيهًا والشريف خليقة أو إمامًا من أئمة الطريق، وقد نتخيلهم جميعًا ظاهرين بازرين فى غير هذه الأعمال التى يزاولها أبناء الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض الصلاح وإن كانوا مع هذا شعراء لا يصلح إلا للشعر وما إليه ولا ينفعه العصر إن لم ينفعه فى هذا المجال. فإذا تمهد له الشعر فقد استوى على نهجه، وإذا لم يكن شاعراً فهو لا شىء.

والعصر الذى عاش فيه كان صالحًا لظهور ابن الرومى أيما صلاح: كان صالحًا لظهور ابن الرومى - الشاعر - لأنه كان عصراً حيًا حافلا بأشتات الحياة وألوان الإحساس مشغولا بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحة أو سليقة، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالى أو عصراً للموالى فيه نصيب وافر من التعلم والتأدب والتربية التى تعد صاحبها للسبق فى كل مضمار.

كان لهذا عصراً صالحًا لظهور ابن الرومى الشاعر الذى لا متقدم له فى غير الشاعرية.

ولكن أتراه كان كذلك عصراً صالحًا لظهور ابن الرومى - الرجل - الذى لم تبق منه الشاعرية بقية لمسعاة ولا لتصرف؟

لا! لم يكن ذلك العصر صالحًا لابن الرومى الرجل كما كان صالحًا لابن الرومى الشاعر. بل لم يكن ذلك العصر إلا عصر مضيعة له ولا مثاله الذين خلقوا فى هذه الدنيا وكأنهم أطفال فى حجر الفن. لا يكلفون أنفسهم إن لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة.

فكانت قسيمته تلك من غرائب القسم التى تتنازع الإنسان بين النقيضين، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين.

فمن جهة هو فى زمنه الذى لم يخلق لغيره، ومن جهة هو فى الزمن الوحيد الذى لم يخلق له ولم يتزود له بألة: أبن الرومى الشاعر فى عصر الحياة والإحساس والدراسة والموالى فهو بخير .. وابن الرومى الرجل فى عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمى فهو بشر ما يكون عليه مثله .. ولا سبيل إلى الافتراق بين الشخصين، ولا سبيل كذلك إلى التوفيق بينهما على حال!

لو كان ابن الرومى شاعراً وشيئًا آخر لكان قمينًا أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصره: لو كان شاعراً ورجلا يحسن الخوض فى معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لأتقى بعض الفشل على الأقل وارتجى بعض النجاح. لكنه كان شاعراً وحسب ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية! فجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناة. ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه، وذلك الخطأ فى تقدير مكانه وسمعته. فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة! شعره نافق وقائل الشعر كاسد .. وربما عابوا شعره فى حياته وأكثروا من عيبه. ولكنك بيسير من النظر قد ترى أنهم لم يقصدوا بالعيب الشعر كما قصدوا القائل .. وإن كان فى الشعر ما يعاب!

فالذين تبادر إليهم أن ابن الرومى كان مجهول القدر فى حياته وبعد مماته إنما نظروا إلى إحدى صفحتيه ولم ينظروا إلى الصفحة الأخرى. إنما كان خمول الرجل أنه لم ينتفع بمعرفة الناس إياه لا أنه لم يعرف، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يعرف بأحسن مزاياه. أما أنه قد عرف فذلك حق لا شك فيه.

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الأدباء والعلماء. فقال العميدى صاحب الإبانة المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبى: "ولا أقيسه فى امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعانى العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومى" .. وقال ابن رشيق صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة: "أكثر المولدين اختراعًا وتوليداً فيما يقول الحذاق أبو تمام وابن الرومى" .. وقال ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة فى كتابه بعنوان المرقصات والمطربات: "ويقولون أنه أحق الناس باسم شاغر لكثرة اختراعه وحسن توليده" .. وذكر وفاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستمائة فقال أن "ديوانه معروف" .. أى أن هذا الديوان كان متداولا فى أيدى الأدباء إلى أيامه. ونظر إلى معانيه كثير من فحول الشعراء والأدباء منهم المتنبى وبديع الزمان والمعرى والشريف، وشاعت مختاراته فى كتب الأدب فلم يخل منها إلا قليل.

أما أخباره فقد عنى بكتابتها وروايتها اثنان من أدباء عصره، وهما عبيد الله بن المسيب وأبو عثمان الناجم. وثالث هو أحمد بن عمار قال ابن المسيب أنه لما مات ابن الرومى "عمل كتابًا فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس".

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدى من أدباء القرن الرابع توسع فى ترجمته أما فى كتابه حماسة المحدثين أو فى كتاب مقصور عليه،

ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر إلا متفرقات فى الكتب لا تغنى فى ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية، وهى على قلتها لا يسعنا إغفالها وللا يسعنا كذلك أن نعتمد عليها ونقبلها على علاتها.

فنحن ننقلها كما هى فيما يلى ثم نعقب عليها ونستخرج منها ما فى الوسع أن نستخرجه من ترجمته للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورة لعبقريته، ومثلنا فى ذلك كمثل المنقبين فى المحفورات إذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولم لم يكن له قوام.

## أخبار ابن الرومى

ولد ابن الرومى كما جاء فى ابن خلكان: يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور".

وبحثنا كثيراً فى الكتب التى عثرنا على شىء من أخباره فيها فلم نجد ذكراً لأبويه وأهله ولا لأيام حداثته وتعليمه، وانقطعت أخباره فى هذه الفترة فلم تقع لنا إلا النوادر التى رويت عنه وهو شاعر لا يعرف سنه إلا بالنظر إلى تواريخ الوقائع التى وردت فى شعره. فجاء فى معجم الأدباء لياقوت الحموى أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار:

"... ووجدت فى كتاب ألفه أبو الحسن على بن عبيد الله بن المسيب الكاتب فى أخبار ابن الرومى وكان ابن المسيب هذا صديقًا لابن الرومى وخليطًا له قال: كان أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار - هكذا قال فى نسبه بتقديم محمد على عبيد الله - صديقًا لابن الرومى كثير الملازمة له، وكان ابن الرومى يعمل له الأشعار وينحله إياها يستعطف بها من يصحبه،

وكان ابن عمار محدودًا فقيرًا ونفاعة فى الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجرير به الأقدار فى أناء الليل والنهار. حتى عرف بذلك فقال له على بن العباس بن الرومى يومًا: يا أبا العباس! قد سميتك العزيز. قال له! وكيف وقعت لى هذا الاسم؟ قال لأن العزيز خاصم ربه بأن أسال من دماء بنى إسرائيل على يدى بختنصر سبعين ألف دم، فأوحى الله لئن لم تترك مجادلتى فى قضائى لأمحونك من ديوان النبوة! وقال فيه:

وفى ابن عمار عزيزية ... يشارك الله بها فى القدر

لم كان ما كان ولم لم يكن ... ما لم يكن، فهو وكيل البشر

إلخ .. إلخ ..

وكتب ابن الرومى إلى أحمد بن محمد بن بشر المرثدى قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والإقبال عليه يقول فيها:

ولى لديكم صاحب فاضل ... أحب أن يرعى وأن يصحبا

إلخ .. إلخ ..

قال: "وصار محمد بن داود بن الجراح يومًا إلى أين الرومى مسلمًا عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والأملاق فى النهاية، وكان على بن العباس مغمومًا به فقال محمد بن داود لابن الرومى ولأبى عثمان الناجم: لو صرتما إلى وكثرتما بما عندى لأنس بعضنا ببعض. فأقبل ابن الرومى على محمد بن داود فقال: أنا فى بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه - يعنى إسماعيل بن بلبل - وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو على غاية الامتناع والإيناس بمشاداته، وأنا أحب أن تعرف مثله، وفى العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه فأقبل محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير إلى فى هذا اليوم وقبله قبولا ضعيفًا، فصار إليه ابن عمار فى

ذلك اليوم ورجع إلى ابن الرومى فقال: إنى أقمت عند الرجل وبت وأريد أ، تقصده وتشكره وتؤكد أمرى معه، ومحمد بن داود فى هذا الوقت متعطل ملازم منزله. فصار إليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه إليه إلى أن ولى عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح وأشخصه معه وقد خرج إلى الجبل ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان المشرق، فاستخرج لابن عمار أقساطًا أغناه بها وأجرى عليه أيضًا من ماله، ولم يزل يختلف إليه أيام حياة محمد بن داود، وكان السبب فى أن نعشه الله بعد العثار وانتاشه من الأقتار ابن الرومى، فما شكر ذك له وجعل يتخلفه ويعيبه، وبلغ ابن الرومى ذلك فهجاه بأهاج كثيرة . . قال ابن المسيب: ومن عجيب أمر عزيز هذا أنه كان ينتقص ابن الرومى فى حياته ويزرى على شهره ويتعرض لهجائه. فلما مات ابن الرومى عمل كتابًا فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس".

وجاء فى الجزء الأول من العمدة لابن رشيق:

"وهجا ابن الرومى البحترى وابن الرومى من علمت فأهدى إليه تخت متاع، وكيس دراهم، وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه، وإنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط.

شاعر لا أهابه نبحتنى كلابه

أن من لا أعزه لعزيز جوابه

وروى المرزبانى فى الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكرى أخبره عن أبى عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحترى قال له:

"أشتهى أن أرى ابن الرومى" قال فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومى أن يصير إلى فيه، فأجابنى إلى ذلك. فلما حصل ابن الرومى عندى وجهت إلى البحترى فصار إلى، فقال له البحترى: قد أقرأنى أبو عيسى بن

صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن الثواب عنها، فقلت أعطوه لكل بيت دينارًا. ثم تحدثنا، فقال البحترى: عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومى الطائية فى الهجاء. فقال له ابن الرومى: إياك والهجاء يا أبا عبادة، فليس من ملك وهو من عملى. فقال له: نتعاون. وعمل البحترى ثلاثة أبيات، وعمل ابن الرومى ثمانية فلم يلحقه البحترى فى الهجاء. وكن اجتماعهما عندى سببًا للمردة بينهما".

وروى المرزبانى أيضًا فى الموشح:

"أخبرنى محمد بن يحيى قال كنا يومًا عند عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومى فى أبى الصقر التى أولها: "أجنت لك الوجد أغصان وكثبان" فقال عبيد الله: ÷ى دار البطيخ! فضحك الجماعة، فقال: اقرأوا تشبيبها فانظروا، هى كما قلت! قال محمد: وقد ملح عبيد الله وظرف، وهذه القصيدة أكثر ما مائتى بيت مر له فيها إحسان كثير، ومن تشبيبها مما يدل على قول عبيد الله:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان

وتحت هاتيك عناب يلوح به ... أطرافهن قلوب القوم فنوان

غصون بأن عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان

ونرجس بات سارى الطل يضربه ... وأقحوان منير النور ريان

الفن من كل شىء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله:

هذا الذى حكمت قدمًا بسؤدده ... عددنا ثم أجازت ذاك قحطان

قالوا أبو الصفر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان

قال: هجانى والله: قيل له: هذا من أحسن المديح، اسمع ما بعده:

وكم أب قد عـلا بابن ذرى شرف  كـمـا عـلا برسـول الله عـدنان

فقال أنا بشيبان ليس شيبان بى: قيل له: فقد قال:

ولم أقـصـر بشـيـبـان التى بلغت  بهـا المبـالغ أعـراق وأغـصـان

لله شـيـبـان قـوم لا يشـيـبـهم  روع إذا الروع شـابت مـنه ولدان

فقال "والله لا أثبتـه على هذا الشعر وقد هجانى فيـه. قال الشيخ أبو عبيـد الله المرزبانى رحمه الله تعالى: وهذا ظلم من أبـى الصقر لابن الرومى وقلة علم منه بالفراق بين الهجاء والمديح":

وجاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب أن عـلى بن العباس الرومى كان "مفـرط الطيرة شديد الغلو فـيها. قـال على بن عبد الله بن المسـيب: وكان يحتج لها ويقول إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده؟ ويقول أن النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقـة ويقول يا ملعونة، فقال لا يصـحبنا ملعون، وأن عليًـا رضى الله عنه كان لا يغـزو غزاة والقـمر فى العقـرب، ويزعم أن الطيرة موجودة فى الطباع قائمة فيها، وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض، وأن الأكـثر فى الناس إذا لقى ما يكرهه قـال: على وجه من أصبحت اليوم. فـدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسـبعين وقد أهدى إلى عدة من جوارى القيان، وكانت فيهن صبـية حولاء وعجوز فى إحدى عينيها نكتة، فتطير من ذلك لوم يظهر لى أمره وأقـام باقى يومه، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطـت لى ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيـد الله فجعل سبب ذينك المعنيين المغنيتين وكتب إلى:

أيهـا المحـتـفى يحـول وعـور  أين كانـت منك الوجوه الحـسان؟

قـد لعـمـرى ركبت أمـرًا مـهـينًا  سـاءنى يفـيك أيـهـا الخلصـان

فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر أرانا ما أعقب المهرجان

كان فى ذاك فقدك ابنتك الحر ... ة مصبوغة بها الأكفان

وتجافى مؤمل لى جليل ... لج فيه الجفاء والهجران

فلما غاب عن أمورك عنوا ... ن مبين، وللزمان لسان

لا تكن بالهوى تكذب بالأخبا ... ر حتى تهين ما لا يهان

لا يقدك الهوى إلى نصرة الأخبا ... ر حتى يقدم البرهان

أن عقب الهوى هوى وقبى ... طول تلك المهونات هوان

لا تصدق عن النبيين إلا ... بحديث يلوح فيه البيان

خير الله أن مشأمة كا ... نت لقوم وخبر القرآن

افزور الحديث تقبل أم ما ... قاله ذو الجلال والفرقان

أترى من يرى البشير بشيرًا ... يمترى فى النذير يا وسنان

فدع الهزل والتضاحك بالطـ ... ـيرة والنصح مثمن مجان

وجاء فى ذلك الجزء بعد ذلك:

"وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابًا مترفًا ومليحًا مستظرفًا، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب، فيقال له من؟ فيقول قولوا لأبى الحسن مرة ابن حنظلة، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سبب هجائه إياه. . فاعتذر إليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد، وكان الأخفش أكثر الناس إخوانًا فقبل عذره ومدحه بقصيدته التى يقول فيها:

ذكر الأخفش القديم فقلنا ... أن للأخفش الحديث فضلا

إلخ . . إلخ . .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه واتصل به أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التى يقول فيها:

ما بلغت بى الخطوب رتبة من ... نفسهم عنه الكلاب والقرده

ولا أنا المفهم البهائم والطـ ... ـر سليمان قاهر المرده

فإن يقل إننى حفظت فكالد ... فتر جهلا بكل ما اعتقده

سأسمع الناس ذمه أبدًا ... ما سمع الله حمد من حمده

وفى الواقع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدى تلميذ أبى على القالى وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلثمائة: "حدثنى أبو على قال: كان على ابن العباس الرومى لا يدع التطير والتفؤل فى جميع حركاته وتصرفه وكان على بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه فى مخارجه فيما يتطير به، فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فإذا قال من أنت؟ قال الشؤم والبلاء! فلا يبرح على بن العباس يوم ذاك، فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع فى هجائه، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملى من الأخبار والأشعار على أصحابه، فلما رأى على بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه"

ويقول صاحب العمدة فى هذه الوقائع بينه وبين الأخفش:

"وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثله بين أصحابه. على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر"

والأقوال فى طيرة ابن الرومى كثيرة منها ما استطرد إلى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيد ما أسلفنا نقله:

"ولابن الرومى فى الأخفش أفحاش صنت الكتب عنه، قال على بن غبراهيم كاتب مسروق البلخى: كنت بدارى جالسًا فإذا حجارة سقطت

بالقرب منى، فبادرت هاربًا وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية، من أين تأتينا الحجارة، فقال: امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت، وقالت: اتقوا الله فينا وأسقونا جرة ماء وإلا هلكنا، فقد مات من عندنا عطشًا. فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها، ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئًا من المأكول، ثم عادت إلى فقالت: ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومى، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بإزائه، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه، فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب. فعجبت لحديثها، وبعثت بخادم كان لى يعرفه، فأمر به بأن يجلس بإزائه وكانت العين تميل إليه، وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحدب، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه للحضور، فإنى لجالس ومعى الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد، ودخل ابن الرومى فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شع نعله: فدخل مذعورًا، وكان إذا فجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه، فقلت له يا ابن الحسن أيكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل؟ فقال قد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة وهى قطع أنثييه! قال برذعة: وشيخنا يتطير؟ قلت نعم ويفرط، قال ومن هو؟ قلت على بن العباس. قال: الشاعر؟ قلت نعم. فأقبل عليه وأنشده:

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بينى وبين الجانب

رجعت إلى نفسى فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند الغوائب

ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب

فـخذ خلسـة من كل يوم تعـيشـه وكن حـذرًا من كامنات العـواقب

ودع عنك ذكر الفـال والزجر واطرح تطيـر جـار أو تفـاؤل صـاحب

فـبقى ابن الرومى باهتًـا ينظر إليـه، ولم أدر أنه شغل قـبله بحفظ مـا أنشده، ثم قام أبو حذيفة وبرذعـة معه، فحلف ابن الرومى لا يتطير أبدًا من هذا ولا من غيـره، وأمأ إلى جـاره، فقلت، وهذا الفكر أيضًا امـن التطير، فأمسك. وعجب من جودة الشعر ومـعناه وحسن مأتاه، فقلت له ليتنا كتبناه! قال اكتبه قد حفظته وأملاه على.

ومن شـدة حذره وعـظيم قوله لأبى الـعبـاس بن ثوابة وقـد ندبه إلى الخروج إليه وركوب دجله:

حضضت على حطبى لنارى فلا تدع لك الخير تحـذيرى شرور المحاطب

ومن يلق ما لاقيت فى كل مجتبى من الشوك يزهد فى الثـمار الأطايب

إذا أقـتنى الأسـفار مـا كـره الغنى إلى وأغـــرانـى برفض المطـالب

من نكبـة لا قـيـتـهـا بهـد نكبـة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب

فصـبرى على الأقـتار أيسر مـطلبا على من التـغـرير بعـد التجـارب

إلخ . . إلخ . .

وهى طويلة وفيـما مر كـفاية تنبئ عنه وتدل عليـه، ولو مددت أكناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت من غرض الكتاب.

وفى الجـزء الأول من العمـدة أنه: "كـان كثـيـر الطيرة ربما أقـام المدة الطويلة لا يتصـرف تطيرًا بسوء مـا يراه ويسمعه، حـتى أن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فاعـلم بحاله فى الطيرة، فبعث إليه خادمًا اسمه إقـبال ليتفاءل به، فلما أخـذ أهبته للركـوب قال للخادم: انصـرف إلى مولاك! أنت ناقص ومعكوس اسمك لابـقًا . . وابن الرومى القائل: الفأل لسـان الزمان والطيرة عنوان الحدثان، وله فيه احتجاجات وشعر كثير".

وقال على بن عبد الرحمن العباسى صاحب معاهد التنصيص المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة: "كان كثير التطير جدًا وله فيه أخبار غريبة، وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون إليه من يتكير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلا، ويمتنع من التصرف سائر يومه، فأرسل إليه بعض أصحابه يومًا بغلام حسن الصورة اسمه حسن، فطرق الباب عليه فقال من؟ قال حسن. فتفاءل به وخرج، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر، فتطير وقال: هذا يشير بأن لا تمر، ورجه ولم يذهب معه، وكان الأخفش على بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح، فإذا قال من القارع؟ قال مرة بن حنظلة! ونحو ذلك من الأسماء التى يتطير بذكرها، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج يومه أجمع، وكتب إليه ينهاه ويتوعده بالهجاء".

وجاء فى هذا الكتاب قبل ذلك: ". . حكى ابن دستوريه أن لائمًا لامه فقال له: لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه؟ فقال ألا تنشدنى شيئًا من قوله أستعجزتنى عن مثله؟ فأنشده قوله فى الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة  قد أثقلته حمولة من عنبر

فال له زرنى، فأنشده قوله فى الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة، والفرس تعظمه بالنظر إليه وفرشه فى المنزل:

كان آذريونها  والشمس فيه كالية

مداهن من ذهب  فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه! تالله لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. ! ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أى شىء أصف؟ ولكن غذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفًا على الجود كنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر أثر مبيض
كأذيال خوذ أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة

وقولى فى صنائع الرقاق:

إن أنس خبازًا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفة كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
ألا بمقدار ما تنداح داره فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية:

ومستقر على كرسيه تعب روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحراً يلقى زلابية فى رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينًا من أنامله فيستحيل شابيكًا من الذهب

وفى الجزء الثانى من زهر الآداب: "كان ابن الرومى منهومًا فى المآكل، وهى التى قتلته، وكان معجبًا بالسمك فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة لا تنقطع. فبعث إليه يوم سبت ثم قطعه، فقال:

ما لحيتانا جفتنا وإلى أخلف الزائرون منتظريهم
جاء فى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيد عظيم فكانا اليهود او نحكيهم

وأراهم مصممين على الهجر فلم يسخطون من يرضيهم؟
قدسبتنا وما أتنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب إلى ابن الرومى:

أبا حسن أنت من لا نزا ل نحمد فى الفضل رجحانه
فكم تحسن الظن بالمرتد ى وقد قلل الله إحسانه
ألم تدر أن الفتى كالسرا ب إذا وعد الوعد إخوانه
فبحر السراب يفوت القلو ب فقل فى طلابك حيتانه!

وخرج ابن الرومى إلى بعض المتنزهات وقصدوا كرمًا رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم، وكانوا يتهمونه فى شعره، فقالوا إن كان ما تنشدنا لك فقل فى هذا شيئًا، فقال لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته:

ورازقى مخطف الخصور كأنه مخازن البلور

إلخ .. إلخ ..

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب: "وكان ابن الرومى لا يزال معتمًا وكان يغضب إذا سئل عن ذلك، وسأله بعض الرؤساء: لم تعتم. فقال بديهًا:

يا أيها السائلى لأخبره عنى: لم لا أراك معتجرًا
أستر شيئًا لو كان يمكننى تعريفه السائلين ما سترا

وقد بين العلة التى أوجبت اعتمامه فى قوله:

تعممت أحصانا لرأسى برهة من القر يومًا والحرور إذا سفع
فلما دهى طول التعميم لمتى وأودى بها بعد الإطالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلع

فـيـا لك مـن جـان علـى جناية جـعلت إليـه من جـنايتـه الفـزع

وأعـجب شيء كان دائنـى جعلتـه دوائى على عمـد، وأعجب بأن نفع!

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب: "قـالوا: وكان الناس يتشوفون إلى أوطانهم ولا يفهمـون العلة فى ذلك حتى أوضحهـا على بن العباس الرومى فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يسعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله:

ولى وطـن آليت ألا أبيـعـه ولا أرى غـيـرى له الـدهر مـالكًا

عـمرت به شـرخ الشبـاب منعمًـا بصحـبة قوم أصبـحوا فى ظلالكا

وحـبب أوكـان الرجـال إليـهم مـآرب قـضـاها الشـبـاب هنالكا

إذا ذكـروا أوطانهـم ذكـرتـهم عهـود الصبـا فيـها فـحنوا لذلكا

فـقـد ألفتـه النـفس حـتى كـأنه لهـا جـسـد أن بـان غـودر هالكا

إلخ . . إلخ . .

وقـال على بن عـبـد الكريم النصـيـبى: أتانى أبو الحـسن ابن الرومى بقصيدته هذه وقال: أنصـفنى وقل الحق . . أيهما أحسن قولى فى الوطن أو قول الأعرابى

حب بـلاد الله مـا بـين منـعج إلى وسلمى أن يصـوب سـحابهـا

بلاد بـهـا نيطت عـلى تمائـمى وأول أرض مس جـلدى ترابهـا

فقلت: بل قـولك، لأنه ذكر الوطن ومـحبته وأنـت ذكرت العلى التى أوجبت ذلك . .

وتخلف سليمان عن نصرة ابن الـرومى فذاك الذى هاجه على هجائه، فمن ذلك قوله وقد خرج فى بعض الوجوه فرجع مهزومًا:

جـــاء سليـــمـــان بنى طـاهر فـاهتـاج مـعـتـز بـنى المعـتـصم
كـــأن بغـــداد وقـــد أبصـــرت طلـعـتـــه نائحـــة تلتـــدم
مـســتـقـبل منه ومـســتـدبر وجـــه بخـيل وقـفـا منهـزم

وقال:

قـــرن سليـــمـان قـــد أصـــر به شـوق إلـى وجـهـه سـيـتلـفـه
كم يعـــد القـــرن بـاللقـــاء وكم يكـذب فى وعـــده ويخـلـفـــه
لا يعـــرف وجـــهـــه ويرى قـفـــاه من فـرسخ فـيـعـرفـه

وقال المعرى فى رسالته الغفران: "أما ابن الرومى فهو أحد من يقال أن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، واستعار من أبى بكر بن السراج كتابًا فتقاضاه به فقال ابن الرومى لو كان المشترى حدثًا لكان عجولا، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية. وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة".

أما وفاته ففيها يقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب: "وممن أهلك القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم منشؤه ببغداد ووفاته بها، وكان من مختلقى معانى الشعراء والمجودين فى القصير والطويل متصرفًا فى المذاهب تصرفًا حسنًا، وكان أقل أدواته الشعر . . وكان ابن الرومى الأغلب عليه من الأخلاط السوداء، وكان شرها نهما وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبى سهل إسماعيل النوبختى وغيره من آل النوبخت".

واختلفت الروايات فى قتله فقال الشريف المرتضى فى أماليه:

"أخبرنا أبو الحسن على بن محمد الكاتب قال حدثنى محمد بن يحيى الصولى قال حدثنى الباقطانى قال: اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر

على بن العباس الرومى وكثرة محالسته لأبى الحسين القاسم ابنه، وسمع شيئًا من أهاجيه فقال لأبى الحسين: قد أحببت أن أرى ابن رومىيتك هذا. فدخل يومًا عبيد الله إلى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا، فقال لأبى الحسين بينه وبينه: أن لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته. فأخرجه عنك! فقال أخاف حينئذٍ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا. فقال يا بنى! إنى لم أرد بإخراجك له طرده، فاستعمل فيه بيت أبى حية النميرى . .

فقلن لها سرًا: فديناك لا يرح  سليمًا، وإن لا تقتليه فالمى

فحدث القاسم بن فراس بما جرى، وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه يا هاج قبيحة. فقال له: الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه، وأنا أكفيك ذلك، فسمه فى الخشكنانج فمات . . قال الباقطانى والناس يقولون ما قتله ابن اراس وإنما قتله عبيد الله. قال ابن الرومى لما رجع إلى داره وقد دب السم فى أعضائه شعرًا:

اشرب الماء إذا ما تلتهب  نار أحشائى لإطفاء اللهب
فأراه زائدًا فى حرقتى  فكان الماء للنار حطب

هذه رواية . .

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال: "توفى يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع وثمانين، وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد، ودفن فى مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسن القاسم ابن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بلافحش فدس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه، فلما أكلها أحس

بالسم فقام، فقال له الوزير إلى أين تذهب؟ فقال إلى الموضع الذى بعثنى إليه، فقال له سلم على والدى! فقال له ما طريقى على النار! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أيامًا ومات، وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط فى بعض العقاقير، وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى المعروف بنفطويه: رأيت ابن الرومى يجود بنفسه فقلت له: ما حالك؟ فأنشد:

غلط الطبيب على غلطة مورد ... عجزت موارده عن الإصدار

والناس يلحون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب أصابه المقدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر: دخلت على ابن الرومى أعوده فوجدته يجود بنفسه فلما قمت من عنده قال لى:

أبا عثمان أنت حميد قومك ... وجودك للعشرة دون لومك

تمتع من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومى رواها ابن القارح فى رسالته إلى المعرى وفيها يقول:

"دخلت عليه فى علته التى مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر. فقلت: ما هذا؟ قال: الماء أبل به حلقى، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان. والخنجر إن زاد على الألم نحرت نفسى، ثم قال: أقص عليك قصتى تستدل بها على حقيقة تلفى: أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة، فتشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الأفضال فقال: إذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو مستق من اليمن، واذهب إلى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العاقبة. فخالفته لتعسى ونحسى. وشاورت صديقنا جعفراً وهو مشتق من الجوع والفرار فقال: إذا جئت القنطرة فخذ عن

شمالك وهو مشتق من الشؤم، واسكن دار ابن قلابة. وهى هذه، لا جرم قد انقلبت بى الدنيا.

وأضر ما على العصافير فى هذه السدرة تصيح "سيق سيق" فها أنا فى السياق. ثم أنشدنى:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك فى العشرة دون لومك

تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول، فقلت له: البول ملح بك. فقال:

غدًا ينقطع البول ويأتى الويل والغول

إلا أن لقاء الله هول دونه الهول

ومات من الغد".

وروى صاحب زاهر الآداب اتفاقًا أن ابن الرومى قصد فى مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول فى الجزء الأول من الكتاب:

"دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله فى التغير فأخبر أنه مشغول فرجع، فبعث إليه الرشيد. خنتنى فاتهمتنى، فقال إذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة، والله ما انصرفت إلا تخفيفًا. أخذه ابن الرومى فقال وقد قصده بعض الأطباء فزعم أن القصد زاد فى علته. غلط الطبيب إلى آخر البيتين . . ولهذه القصة قيمتها فيما يلى من البحث فى أسباب وفاته

هذه أنفع الأخبار التى وردت فى ترجمته. أما ديوانه فقد جاء عنه فى الفهرست لابن النديم أن شعره "كان على غير الحروف. رواه عنه المسيبى ثم عمله الصولى على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت".

ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التى كتبوها من شعره وهم:

مثقال غلام ابن الرومى مائة ورقة، ورواه أبو الحسن على بن العصب الملحى عن مثقال عن ابن الرومى.

ابن الحاجب غلام ابن الرومى مائة ورقة، أحمد بن أبى قر الكاتب مائة ورقة، خالد الكاتب وعمله الصولى مائتا ورقة".

والصولى هو أبو بكر الصولى الحافظ الرواية المشهور.

***